



قام مفتى سوريا أحمد بدر الدين حسون ، أواخر الشهر المنصرم ، بزيارة إلى روسيا أثار خلالها غضب المراجع الدينية المسلمين الروس ، إثر انتقاداته الساخرة لمقاربتهما لبعض المقولات الدينية . وبعد رحلة قام بها إلى تترستان ، زار خلالها متاجر "سوبر ماركت الحلال" للسلع والمواد الغذائية ، خرج المفتى ، في لقاء مع طلاب جامعة الصداقة في موسكو ، بانتقادات لاذعة سخر فيها من فكرة مثل هذه المتاجر . ونقلت عنه نوفوستي قوله ، بأن مثل هذه المتاجر كأنها تقول للمسلم بأن كل الشعب الروسي يتناول أطعمة محرمة ، بينما "هو وحده يتناول الطعام الحلال".

ونقلت صحيفة "kommersant" المستقلة في طبعة مدينة قازان ، عاصمة تترستان ، عن المفتى قوله ، بعد أن شاهد في أحد هذه المتاجر سمكة "حلال" ، بأن مثل هذه السلعة لا يمكن لها أن توجد ، لأن السمكة تُصطاد ولا تُذبح . وبعد أن ذكر المفتى بمحرمات الإسلام من الخمرة والخنزير والحيوان النافق ، قال بسخرية لاذعة "يبدو أننا سوف نرى قريباً مما نتناوله عنباً ويرتقاً حلاً".

لم يكتفى المفتى السوري بالسخرية من متاجر "الحال" التترية هذه ، وتأويل مقوله الحال لدى المسلمين الروس ، بل تعرض لموضوع البنوك الإسلامية ، وأعلن وقوفه ضدها ، لأنها يمكن أن "تقسم المجتمع وتفضي إلى الحرب" . فالهدف من إنشاء البنك الإسلامي، على قوله " هو تقسيم المجتمع ، وفكرته هي حجة لكراهية الآخرين ، هي حجة للقتل ". وقد جاءت تهجمات المفتى حسون على البنوك الإسلامية في الوقت عينه ، الذي كان فيه الرئيس التترى رستم مينيخانوف يتسلم في

الإمارات العربية المتحدة من ولی العهد في إمارة دبي جائزة "مركز دبي لتنمية الاقتصاد الإسلامي" على إنجازاته في حقل تطوير الاقتصاد الإسلامي.

أثارت انتقادات المفتى حسون حفيظة المراجع الإسلامية في ترستان ، التي ردت عليها بنبرة مؤنبة ، قائلة "أن الحلال ليس مادة للتفكه والسخرية . فهذه يمكنها أن تؤدي في بلادنا حتى إلى إهانة المسلمين" . وقال رئيس هيئة إدارة شؤون المسلمين في الجمهورية كميل سميحة ، بأن المسلمين الروس يعيشون في ظروف مختلفة كلها عن تلك ، التي يعيش في ظلها السوريون.

انتقادات المفتى حسون لمتاجر "الحلال" والبنوك الإسلامية لم تثر استياء المرجعيات الإسلامية الروسية فقط ، بل لفتت انتباه الأوساط الأكاديمية المتتابعة للشؤون الإسلامية ولتطور الأوضاع في سوريا ، والتي بنى عليها البعض من هذه الأوساط إستنتاجات مثيرة للجدل . فقد كتب كل من كيريل سيميونوف وأنطون مادراسوف، الخبرران في المجلس الروسي للشؤون الخارجية ، مقالة مشتركة في صحيفة "NG" الروسية تحت عنوان "لماذا تراهن روسيا على بشار الأسد" ، يستنتاجان فيها أن "دمشق تستبدل الأيديولوجية البعثية بمذهب "الإسلام العلماني".

يقول الكاتبان ، أن ملاحظات المفتى حسون الحليف لبشار الأسد ، قد أثارت دهشة حتى أولئك المسلمين البعيدين عن الأصولية ، وعكسـت بوضوح تشكـل مذهب "الإسلام العلماني" في سوريا . ويمكن لهذا المذهب أن يصبح النموذج الأيديولوجي ، الذي يتوحد حوله أنصار النظام السوري ، في ظل الأيديولوجية البالية لحزب البعث . والقيادة السورية لا تتحدث في العلن عن أن الأيديولوجية السابقة قد استهلكـت نفسها ، إلا أن العاملين الحزبيـن ، ومنذ فترة بعيدـة ، يدقـون ناقوسـ الخطـر ، الذي يـشتـد كلـما اقتربـتـ الحربـ منـ نهاـيتهاـ.

مع اقتراب العمليـات العسكريةـ منـ نهاـيتهاـ فيـ سورياـ ، وبـدءـ اللاـعـبـينـ الـخـارـجيـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ ماـ يـشـبـهـ عـمـلـيـةـ تـسوـيـةـ سـيـاسـيـةـ، تـصـبـحـ مـسـأـلـةـ اـسـتـقـارـ نـظـامـ الـأـسـدـ اـكـثـرـ إـحـاحـاـ . وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الإـلـانـ المـتـكـرـ عـنـ ضـرـورةـ إـلـاصـلـاحـاتـ ، إـلـاـ أـنـ دـمـشـقـ المـدـعـومـةـ مـنـ روـسـياـ وـإـيـرانـ ، غـيـرـ مـسـتـعـدـةـ لـلـتـسـوـيـاتـ ، وـلـنـ تـأـخـذـ إـلـاـ بـرـأـيـ تـلـكـ الـمـعـارـضـةـ ، الـتـيـ كـانـتـ دـائـمـاـ مـوـالـيـةـ لـهـاـ ، وـ"ـالـعـمـيـلـةـ"ـ فـيـ حـقـيقـتهاـ . وـلـاـ يـزالـ النـظـامـ السـوـرـيـ يـطـلـقـ عـلـىـ مـاـ جـرـىـ فـيـ الـبـلـادـ "ـعـدـوـانـاـ"ـ ، "ـأـزـمـةـ"ـ وـ"ـحـرـبـاـ عـلـىـ إـلـرـهـابـ"ـ ، وـلـاـ يـعـتـرـفـ بـالـطـبـيـعـةـ الـأـهـلـيـةـ لـلـصـرـاعـ ، وـيـحـاـولـ الـعـودـةـ إـلـىـ الـمـاضـيـ ، مـتـجـاهـلـاـ مـسـبـبـاتـ الـرـبيعـ الـعـرـبـيـ .

إـلـاـ أـنـ مـمـثـلـيـ حـزـبـ الـبـعـثـ الـحـاـكـمـ يـعـتـرـفـونـ عـلـىـ الـهـامـشـ ، أـنـ النـقـصـ فـيـ الـكـاـدـرـاتـ وـعـدـمـ مـلاـعـمـةـ الـأـيـديـوـلـوـجـيـةـ الـراـهـنـةـ لـحـقـائـقـ الـوـاقـعـ ، يـضـعـانـ قـبـلـةـ مـوقـوتـةـ أـخـرىـ تـحـتـ سـلـطـةـ الطـبـقـةـ الـحـاكـمـةـ . وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الـعـيـوبـ الـواـضـحةـ لـأـيـديـوـلـوـجـيـةـ الـبـعـثـ الـفـضـفـاضـةـ وـالـقـمـعـيـةـ فـيـ جـوـهـرـهـاـ ، إـلـاـ أـنـ السـلـطـةـ تـقـودـ الـمـجـتمـعـ إـلـىـ حـالـةـ يـصـبـحـ معـهاـ مـسـتـحـيـلـاـ أـيـ بـدـيـلـ غـيـرـ مـؤـلمـ لـلـنـظـامـ السـابـقـ فـيـ حـالـ سـقـوـطـهـ . لـقـدـ تـعـرـضـتـ أـيـديـوـلـوـجـيـةـ الـقـيـادـةـ السـوـرـيـةـ خـلـالـ فـتـرـةـ الـصـرـاعـ إـلـىـ تـغـيـرـاتـ كـبـيرـةـ ، وـهـيـ تـقـومـ حـالـيـاـ عـلـىـ نـظـرـيـةـ تـوـفـيقـيـةـ تـرـافـقـ فـيـ الـعـلـمـانـيـةـ إـلـاستـعـراـضـيـةـ مـعـ الـخـطـابـ إـلـاسـلامـيـ . وـقـدـ أـدـتـ الـمـبـالـغـةـ فـيـ اـسـتـخـداـمـ مـثـلـ هـذـهـ الـنـظـرـيـةـ التـوـفـيقـيـةـ إـلـىـ تـعـرـيفـاتـ صـارـخـةـ فـيـ تـنـاقـضـاتـهـ مـثـلـ تـعـرـيفـ المـفـتـيـ حـسـونـ نـفـسـهـ بـأـنـهـ "ـالـمـفـتـيـ الـعـلـمـانـيـ"ـ .

في سياق هذا "المذهب التوفيقية" ، على قول الكاتبين ، جرى ، وبشكل واع على الأغلب ، اعتماد نهج للتقرير بين الشيعية والسنوية في الإسلام ، وهو نهج يصب في صالح إيران ، التي تقوم بعملية تشيع متواصلة في سوريا . بل لم يقتصر الأمر على التقرير بين السنوية والشيعية فحسب ، بل اعتمد نهج التقرير هذا أيضاً بين الإسلام والديانات الأخرى ، التي يعيش أتباعها في سوريا . ومن اللافت أن هذا المذهب يقوم في أساسه على الولاء الشخصي للأسد . ويبرز ذلك بوضوح ، على سبيل المثال ، في خطابات قائد فرقة "قوات النمر" سهيل الحسن ، الذي ساوي الأسد بالنبي محمد . فالتشكيلات الموالية للأسد تستخدم في معاملاتها الداخلية الخطاب المميز للجهاديين أو للفصائل الموالية لإيران ، إذ يطلقون على قتال الأسد ضد أعدائه تسمية "جهاد" ، ويسمون من يُقتل في الحرب "شهداء" ، بغض النظر عن انتمائهم الديني.

ويخلص الكاتبان ، اللذان لا يمتازان ، مع الصحيفة ، بصلة إلى معارضه الكرملين وحربه السورية، إلى التأكيد بأن النهج المذكور للقيادة السورية يعمق أكثر الهوة الفاصلة بين الجهات المتصارعة في سوريا : الشرائح العليا العلمانية ومتعددة الإنتماء الديني في المدن ، وسكان الريف السنة المحافظون . ولا يمكن لسلوك السلطات السورية هذا إلا أن يثير الرفض لدى الطرف الآخر ، بل والذي يعتبره تشويهاً للدين.

إن مثل هذا الوضع لا يخلق فقط وهماً بالسلام في سوريا ما بعد الحرب ، بل ويخلق ، حسب الكاتبين، فراغاً يستطيع الدعاة الراديكاليون ملؤه ، وأخذت تستخدمه الخلايا المتخفية للدولة الإسلامية.

المصادر:

المدن